المصري اليوم
من النسخة الورقية | العدد 7388 | جميع الاعداد

رحيل مفكر عربى عظيم

د. عصام عبدالفتاح

الخميس 05-09-2024 00:00

رحل عن عالمنا فى 14 أغسطس الماضى، عن عمر يناهز الثمانين عامًا، قامة فكرية هائلة تُعد من كبار مفكرى العالم العربى الذين يتميزون بثقافتهم الموسوعية وعمق تحليلاتهم لمشكلاته التاريخية والسياسية والاقتصادية. إنه المفكر والكاتب والخبير الاقتصادى اللبنانى جورج قرم. وهو لمن لا يعرفه من مواليد الإسكندرية عام 1940 التى هام بها عشقًا قبل أن يطويها الزمان. ينحدر «قرم» من عائلة مشبعة بالثقافة والفن، فجده وأبوه كانا رسامين مشهورين فى لبنان.

وتلقى تعليمه الثانوى فى مدرسة الجيزويت بالقاهرة، والتحق بعدها بكلية الحقوق ومعهد العلوم الاقتصادية فى باريس. وكان مهمومًا بظاهرة التوزع المجتمعى للسلطة فى لبنان على الأساس الطائفى فأعد أطروحة للدكتوراه فى باريس عام 1966، عنوانها «تعدد الأديان وأنظمة الحكم». ولجورج قرم عشرات المؤلفات المهمة تُرجمت إلى العربية، ومن أهمها: انفجار المشرق العربى، وشرق وغرب، والمسألة الشرقية، ونال عنه جائزة الأكاديمية الفرنسية لعام 2018.

تبوأ «قرم» مناصب عديدة فى لبنان وخارجه، فكان أستاذًا جامعيًا، وتولى وزارة المالية، حيث وضع إصلاحًا سدد به مديونيات لبنان وأعاد التوازن لميزان مدفوعاته، وبات معروفًا بأنه «كان أنقى السياسيين الذين عرفهم لبنان».

تأثر «قرم» خلال حياته فى فترة الخمسينيات بالفكر الناصرى وخطابات عبدالناصر المناهضة للإمبريالية، وثار ضد العدوان الثلاثى عقب تأميم قناة السويس عام 1956، وتحمس للتيارات التقدمية العلمانية، وفجعه وقوع العالم العربى ضحية لسياسات الغرب ومحاولاته لإعادة أسلمته لتحقيق مآربه إبان الحرب الباردة. يعلق «قرم» على ذلك قائلًا: «اتسمت الأعوام الأخيرة للحرب الباردة فى الثمانينيات بحشد الغرب للأديان الإبراهيمية الثلاثة ضد عدوين لدودين له: الماركسية والحياد الإيجابى، تحت تأثير تيتو وعبدالناصر. فما كان من الولايات المتحدة وبريطانيا إلا أن رفعتا من التيار الوهابى فى السعودية مثالًا للإسلام الصادق لتعبئة الشعوب الإسلامية ضد الفكر الماركسى والفكر القومى. كما أبدى الغرب تسامحًا وتشجيعًا للتيارات الإسلاموية المتشددة ليستخدمها فى دحر الجيوش السوفيتية عن أفغانستان.

وعن خبراته فى الميدان الاقتصادى والمالى فى لبنان والجزائر، التى عُين فيها مستشارًا اقتصاديًا رفيع المستوى، يقول «قرم»: «أحد الدروس التى استخلصتها من عملى فى الاقتصاد هو أن الريع الذى تجلبه المواد الأولية لا مفر له من أن يتحول بعد زمن إلى عاهة لأن المجتمع الذى يريد حقًا امتلاك التكنولوجيا لابد أن يشعر بالمعاناة والحاجة إليها، وهو ما يفتقده المجتمع الريعى الذى يشتريها جاهزة دون معاناة».

وحول استغلال الأديان أداة للهيمنة الغربية يقول «قرم»: «ظاهرة الرهبة من الإسلام تقليعة حديثة. فى شبابى وأثناء دراساتى لم تكن موجودة وإنما ظهرت منذ أن خرجت أطروحة صمويل هنتنجتون حول صدام الحضارات التى يجعل فيها من اختلاف القيم الثقافية والدينية والأخلاقية المصدر الحقيقى لأزمات العالم. وقد أراد هنتنجتون بتفسيره هذا أن يُحيى الثنائية العنصرية التى كان أرنست رينان ينادى بها فى القرن الـ19 وبمقتضاها يقسم العالم إلى عالمين: العالم الآرى المتحضر ذو الاثنية الرفيعة، والعالم السامى الميال بطبعه إلى العنف والفوضى».

خطط الغرب أيضًا لإشعال الثورة الإيرانية عام 1979، إذ رأى فى قيامها وسيلة ناجعة للحيلولة دون وصول القوميين من أشباه الجنرال مصدق إلى سدة الحكم بعد الشاه، وكان يظن أن إيران ستصبح حليفًا له كدول الخليج العربى، ولما تكشف له العكس انقلب عليها ونجح فى تأجيج الفتنة بين الشيعة والسنة ليرد كل النوازل السياسية لها، رغم أن ثمة رموزًا شيعية فى بعض الحكومات الخليجية، وكلما طرأت كارثة فى المنطقة العربية تبسط المحللون فى تفسيرها بمصطلحات الصراع الشيعى- السنى! وهكذا رأينا أن حماس التى تنتمى إلى حركة الإخوان السنية أثار الغرب عداء العرب ضدها بدعوى أن سلاحها المستخدم ضد إسرائيل سلاح إيرانى شيعى. ورغم أن ثمة معارضين شيعة فى لبنان ضد حزب الله نجد سنيين ومسيحيين يناصرونه، ويسعى الغرب إلى إثارة السنيين ضده مستخدمًا السلاح الطائفى.

ركز «قرم» انتقاداته على التبسط المخل الذى تفرضه القراءات الغربية المصطنعة للأحداث السياسية على العرب بعيدًا عن التفسير الموضوعى للواقع.